قانون نيوتن الثالث

يسري سلامة حجازي

كما أن الضوءَ مفردة الشعاعُ، كذلك الظلام مفرده خيط العتمة.

في النهار تتكمش هذه الخيوط وتتجرثم على هيئة نقاط معتمة، تختبئ بجوف الكهوف والخزائن المغلقة والثقوب والثغور التي لا يصلها الضوء، حتى يجيء الليل فتنحل وتتمدد متصلة بالظلام الكوني الذي يحيط بكل شيء.

واحد من خيوط العتمة هذه ـ وكان جسورا معتدا بنفسه وبنسبته إلى قبيلة القتام والحلك ـ كان مع رفاقه في ناحية من البرية، يُحمسُهم ويشجعهم وقد اقترب الوقت من غبشة الغروب، قال:

ـ أيها الرفاق تشجعوا، أنتم أصلُ العالم ومادتُه الحقيقية، وما سوانا أوهام طارئة،لاتدَّعوا فرصةً لسيادة الظلام إلا وانتهزتوها بسرعة خاطفة، تربصوا بفتائل المصابيح وجذوات المواقد واستعينوا بالريح الثائرة والرطوبة الخانقة.

والآن يا أخواني لدينا مهمة كبرى، ففي أعماق هذه البقعة من الأرض، تحت الركام والردم، توجَدُ جوهرة يسكنها شعاعُ ضوء رخو يجعلها تضيء بذاتها

في هذا العمق المعتم، متحديةً سلطان الظلمة الداجية، جارحةً كبرياءها؛ فهيا معي ننفُذ في طبقات الثرى لننظر كيف نؤدب هذا الحجر المضيء.

تجمعت خيوط العتمة معا كحربة نافذة واخترموا طبقات القاع وصولا للجوهرة الرائعة التي غاظتهم بألقها الهادئ.

تقدم خيط العتمة الجسور المتهور يتلمس سبيله إلى قلب الجوهرة حتى وجد خدشا دقيقا فنفذ منه وقتل الشعاع الهادئ الساكن في نسيجها، فانطفأ نور الجوهرة وانمحى ألقها الجميل.

في مجلس حراس التوازن الكوني، انزعجت الكائنات الشبحية الطيبة ذات السلطة المطلقة على مفردات الوجود، واعتبرت أن ما فعله خيط العتمة هو جريمة غاشمة، وخرق للناموس والنظام.

في نهار قائظ، كان خيط العتمة المجرم يكمن كنقطة سوداء في ظل عريشة متداعية، وعلى حين غرة منه، حَمِيَت الشمسُ فاحترقت العريشةُ بوهج حارق، وقبضت الشعاعاتُ الساخنة على خيط العتمة واقتادوه للعقاب، بأن يُحرَقَ في جوف الشمس. وبالفعل ألقِيَ خيطُ العتمة في جوف الشمس حتى احترق ثم استوى وأصبح شعاعَ ضوء سَني.

وكما كان في سيرته الأولى خيطَ عتمة جسور متحمس للظلام، أصبح

في سيرته الثانية شعاع ضوء جسور متحمس للنور.

في غمرة حماسه أراد أن يكفر عن خطيئته القديمة، فخاطر بنفسه مخترقا طبقات الأرض المظلمة حتى بلغ الجوهرة المنطفئة التي تحولت بسببه إلى حجر أغبر، ومن نفس الخدش الدقيق نفذ إلى قلب الحجر وسكن نسيجه، فتألق الحجر وعاد جوهرةً تُشِعُ بضوء سَنِي عذب عجيب.

كرت الأعوام والسنون، وشاءت المقاديرُ المكتوبة أن تُخرج الأرضُ

أطمارَها فبانت الجوهرة العجيبة لشاب طيب فقير، فأخذها وباعها بثروة أغنته، لصائغ ماهر، أخذها وهذبها بفنه الحاذق البارع، حتى صارت تحفة مدهشة لاتليق إلا بتاج ملك البلاد.

وهكذا كان، اشترى الملك الجوهرة بثروة طائلة وجعلها درة تاجه، وآية عظمته يتحاكى بها الملوك والسلاطين.

وكرت السنون، وقامت على الملك ثورة دموية، أُزْهِقَت فيها الأنفسُ ونُهبت فيها النفائسُ، واختفت الجوهرة.

ـ درة التاج الملكي ـ في حقيبة ثائر لص، وضعها في صندوق من رصاص، في خزنة من حديد، في جدار حجري، في بيت مهجور على أطراف قفر

صحراوي.

قُتِل اللصُ الثوري، ودرَسَت معالمُ البيت المهجور وانطمرت الجوهرةُ في ظلمة بعد ظلمة بعد ظلمة بعد ظلمة، سنينا عددا، حتى انطفأ نورُها، وتحولت إلى فحمة غبراء.

في عهد الجمهورية الخامسة، تطرقت آلات الإعمار العملاقة إلى القفار، وبين تروسها ومطارقها.

الجبارة تحطم الحجر والرصاص والحديد، وعادت جوهرة التاج القديمة إلى السطح فحمة غبراء، خرج منها شعاع الضوء وقد استحال ثانية إلى خيط عتمة أشد غلسة وقتامة وشراسة يصرخ:

- أيها البشر الحمقى، أعدكم بالظلام....أعدكم بالخوف.

***